في مكانٍ معزول

قصة بقلم
محمد زفزاف

كانت ندائف الثلج في الخارج ما تزال تتساقط ، ويمكن للمرء ملاحظة البياض المنتشر في كل مكان رغم الساعة العاشرة ليلا . وقد استطاع احمد ان ينكمش داخل معطفه مثل قنفذ ، لان المقهى لم يكن به زبائن كثر ، ولم يكن دافئا بما فيه الكفاية . وبالرغم من البخار الذي يغطي الزجاج والذي يوهم بدفء حقيقي ، فقد كان المقهى باردا. وقد حاولت الفتاة من وراء البار ان تبرر ذلك فقالت :

ـ لا يمكن بأي حال تجنب البرودة . فالمكان واقع بين جبال ، والثلج يتساقط باستمرار . ثم لا يمكن ادفاء المقهى فذلك يكلف كثيرا . خصوصا وان الزبائن يقلون باستمرار في هذا الوقت .

ـ يبدو ان المكان خال وحزين جدا بسبب الجو .

ـ ليس تماما . هل أسكب لك ؟

ـ نعم . واسكبي لنفسك اذا أردت ان تتجنبي هذا البرد الذي ينذر بزكام حاد .

ـ سأشرب ويسكي ، فصاحب المقهى يرفض ان اتناول شرابا رخيصا .

كان المقهى فارغا الى حد ما . فهناك حوالي ثمانية اشخاص متعرقين ومتلفعين في البار او على مقاعد جانبية وقد أغلقت الابواب والنوافذ ، وخفت الضوء . ويأتي من كوة المطبخ صوت ارتطام أوان وكؤوس تغسل . تتناولها الفتاة بين حين وآخر وتصففها تحت البار . وفي زاوية قرب الباب كانت امرأة قد رفعت لثامها ، فبدا الوشم يغطي وجهها على الطريقة الزمورية ، تشرب الكأس تلو الاخرى . في حين كان الرجل الذي يرافقها قد سكر نهائيا فتدلت اطراف عمامته على كتفيه وفوق جبهته ، وقد تدلت شفته السفلى . وقالت الفتاة :

ـ ان الويسكي يؤثر على صحتي لكني ملزمة بشربه .

ـ حاولي ان تشربي النبيذ الاحمر .

ـ غير ممكن . انظر تلك المرأة هناك . لا تشرب سوى النبيذ ومع ذلك فهي اقوى من عفريتة .

ـ لقد سكر زوجها بالبيرة فقط .

ـ انه يسكر بسرعة . لكنه ليس زوجها فهو متزوج بامرأتين .

ـ يا للحظ ! لا بد انه غني .

ـ يتاجر بالابقار ، ويملك شاحنتين . حتى القايد يرهبه هنا . وزوجتاه تعرفان علاقته بتلك .

ثم سمعت الفتاة ارتطام كأس بانبار فذهبت لتجفف بالمكان . ودخل اثنان وقد دليا طاقيتيهما على آذانهما .كانت الطاقيتانوالثياب قد ابيضت بفعل الندائف الموزعة على اجسامهما . وأخذ أحدهما يكور كفيه وينفخ فيهما فيخرج بخار كثير يحجب وجهه الذي لطخه الشحم . لا شك انه عامل تشحيم . والآخر سائق شاحنة . وتوجها مباشرة الى البار ووقفا بالقرب من احمد وطلبا قهوتين ساخنتين جدا . وتحدثا بهمس بينهما فشربا قهوتيهما بسرعة وغادرا المكان وقد أحكما شد طاقيتهما قبل فتح الباب الزجاجي للمقهى . وتسربت ريح خفيفةقارسة فتحرك جميع الزبائن وأحكموا شد ثيابهم على أنفسهم . وأخرج أحمد سيجارة مفكرا انه يستطيع ان يدفيء بها على الاقل دائرة الفضاء المحيطة بوجهه . وأفرغ ما تبقى من الكأس في جوفه وضرب بقاعه على البار فأتت الفتاة وصبت له ولنفسها . وقالت انها لا شك ستسكر الليلة وان ذلك ممتع حقا ، خصوصا في مثل هذا الجو . ثم اضافت بالبربرية :

ـ الا وصميد باهرا . سنت تاشلحيت ؟

(الجو بارد جدا . هل تتكلم البربرية ؟)

ـ لا . لكني فهمتك . هل أنت بربرية ؟

ـ المرحوم ابي بربري . اما أمي فعربية من دكالة . أضطر احيانا لان اتحدث بالبربرية فأغلب سكان المنطقة هنا بربر .

ـ لماذا نفيت نفسك هنا ؟ يبدو انك لست من هذا المكان .

ـ لا . لكن لذلك قصة طويلة . قصة طويلة جدا . على كل حال لا يمكن ان اعود الى مدينتي فهو يهددني بالقتل .

ـ من ؟

ـ هو .

ـ لكن هناك السلطة .

ـ أنا أعرفه جيدا . الافضل ألا نتحدث في هذا الموضوع . ثم اني

اعيش رغم العزلة حياة سعيدة نسبيا . وقد ألفت المكان وأخشى ان أقضي فيه عمري كله .

ـ ذلك ما يخشاه اي انسان يكون في مكانك . هل ترين القمر في الاعالي وقمم الثلج ؟

ـ ان الزجاج مضبب ولا ارى شيئا .

ـ انا كذلك لا ارى شيئا . لكنـــي تخيلت ذلك فقط . هات لي كأسا اخرى . ان بي تعبا لا حد له . وأفكر اين انام في هذا البرد القارس ، خصوصا وانك قلت بانه ليس هناك فندق .

ـ نعم . ليس هناك فندق . نحن فقط نملك ثلاث غرف لكنهـــا محجوزة منذ اربعـة ايام للسياح . اشرب وسيأتي الحل فيما بعد . حقا ، ان ذلك شاق بالنسبة لك . اقرب مدينة تبعد ثمانين كيلومترا ، علاوة على الثلج والجو السيىء .

ـ نعم . والتعب الشديد . فانا لا أستطيع ان اقود السيـــارة الآن . هل تفهمين ؟

ـ افهمك جيدا .

ثم صبت لنفسها ، ولبت طلب زبـــون آخر في زاوية البار . وغادرت البار وهي تسعل الى صندوق الموسيقى . وسمع صـــوت دافىء بلحن اميركي ينطلق من هناك . واستيقظ الرجل الذي تـدلت عمامته ورفع عقيرته بأغنية بربرية . وطلبت منه الفتاة ان يكف عـــن ذلك ، لانه ليس وقته ، وبعد ذلك يكون في امكانهم جميعا انيستمعوا لصوته . وقال الرجل :

ـ أعطونا شرابا فالحياة قصيرة . لا بد ان ابيـــع يوم السبت القادم شاحنة ابقار بكاملها . يا لها من صفقة !

وقالت الفتاة :

ـ لا تعتقد ان الناس متسولون .

وقالت لاحمد :

ـ انه فظ . عندما يسكر يتباهى بماله .

وقال احمد : ـ معه حق . ان الحياة قصيرة . البرد شديـــد ايضا ويجب ان انام . ما رأيك في ان انام معك الليلة وأدفع لك .

ـ لا ادري . ذلك لم يحصل مع زبون قط هنا .

ـ فليحصل لاول مرة . اشربي كأسك . الحياة قصيرة . هيه . كل شيء متعب حتى النوم مع امرأة . لا تعتقدي اني مثل الآخرين . سأذهب لانام فقط . واذا لم تريدي فاني لم اقربك ، مـــع انـه مـن الافضل ان ننام في فراش واحد الليلة .

ـ انك تشرب كثيرا . هل أكلت ؟

ـ أكلت سردينا ونصف كيلو من الموز قبل ساعات .

ـ ليس ذلك كافيا . اطلب لك سندويشا . انا ايضا في حاجة الى ان آكل قبل ان انام .

ـ حسنا . كما تشائين . أعطينـــي شرابا . ان البرد قد بـــدا يخف . اشعر بدفء .

ـ لكن انفك احمر .

وسمعت زبونا يطلبها ، فذهبت وتناولت الحساب . ثم غـــادر ثلاثة رجال المقهى ، وتسربت الريح من جديد فلم يشعر بها . ورأى النادل تحت المصابيح كثيفة ما تزال تتساقط . كان الشارع كـــله مغطى بالبياض وفارغا . وانغلق الباب الزجـــاجي من تلقاء نفسه . وسمعها احمد وهي تسأله :

ـ هل انت موظف في الدولة ؟

ـ لا .

ـ تاجر ؟

ـ لا .

ـ آه فهمت . مهرب مخدرات . انهم يمرون كثيرا من هنا .

ـ لا ، لست مهرب مخدرات . لكني افعل اشياء اخرى فـــي الحياة . هل تشتغلين معهم ؟

ـ مع بائعي المخدرات ؟

ـ لا . هم .

ـ من هم ؟

ـ هم . ألا تعرفينهم ؟ رجال الشرطة .

ـ غير ممكن .

ـ لماذا غير ممكن ؟

ـ لانه كذلك . لقد طلبت سندويشين ، هل تسمح بان افرغ كأسا أخرى لي . الواقع انك كريم .

ـ لكني فقط أود أن أنام .

ـ ذلك ممكن . الا انه شيء صعب . انت لا تعرف المنطقـــة . لا يمكنني أن آخذ معي زبونا الى البيت . غدا سوف يتكلم الجميع .

ـ لكن المسألة مسألة ليلة واحدة فقط في حياتك هنا .

ـ فهمت . ستكـون مضطرا لانتظاري ساعتين او اكثر حتى يفرغ البار نهائيا .

ـ سأحاول ان افعل . هل تأخذينني معك ؟

ـ ان عندي سريرا واحدا يتسع لشخص .

ـ ذلك أحسن .

كان احمد قد شعر بثقل في رأسه من فعل الخمر . ثم اخـــذ يغمض عينيه ويحاول السقوط من فوق المقعد الى الخلف . وقـــالت الفتاة وقد اصبحت لا تستطيع ان تتمالك نفسها من فعل الشراب :

ـ اذهب وانتظرني في السيـــارة ، سألحق بك متى انتهيت . هكذا انهي جميع الشكوك .

دفع الثمن ، وأمسك بالسندويش ، وتوجه الى الخارج وهـــو يمضغ . وكانت الريح شديدة تهب من الاقاصي . ارتعش جسمه كـله فوجد نفسه يركض بصعوبة فائقة لان قدميه لم تسعفاه . سقط فوق الثلج ، ثم تحامل على نفسه وتوجه الى السيارة ، ثم اغلق على نفسه الباب وحاول ان يأكل لكنه لم يتمكن من ذلك . وشعر بيديه ترخيـان السندويش فوق فخذيه ، لكنه لم يجد القدرة لاعادته الى فمه . وأخذ يشخر بصوت مرتفع عندما شعر بالدفء ، وتدلى رأسه الـى الامام، في حين كانت الفتاة قد بدأت تسفط الكؤوس بين قدميها فـي البار . ولم يبق هناك سوى زبون واحد مخمور .

الدار البيضاء (المغرب) **محمد زفزاف**